روايات)[٧]، وفي المسرحية (ثلاث مسرحيات)[٨]، وفي الدراسات الادبية الطويلة (ثلاث دراسات)[٩]، وفي الكتابات السياسية والصحفية (عشرات البحوث والدراسات)[١٠]، كل هذا الكم المتميز بكيف ملحوظ ورائد، يدور حول القضية وجماهيرها وخصومها الداخليين والخارجيين. ان هذا يعني ان القضية الفلسطينية، كحركة تحرر وطني لها خصوصيتها الانسانية، كانت تستغرق من غسان الفكر والروح والقلم، لأن هذا هو التفسير الممكن والمعقول لهذا التخصص والتركيز في كتاباته، على كافة امور القضية الفلسطينية وشعبها، والتزامه الفاعل الذي جعل منه هدفاً لخصوم القضية، ظلوا يلاحقونه، حتى اوصلوه الى الشهادة. يقول غسان عن استغراقه الكامل في قضيته الوطنية: «عندما باشرت بالتدريس واجهت مصاعب جمة مع الاطفال الذين درّستهم في المخيم. فقد كنت اغضب دائماً لدى مشاهدتي طفلاً نائماً اثناء الصف. وببساطة اكتشفت السبب: لقد كان هؤلاء الأولاد يعملون في الليل، يبيعون الحلوى او العلكة او ما شابه، في دور السينما والطرقات. وبالطبع، كانوا يأتون الى الصف وهم في غاية التعب. ان حالة كهذه، تقود الانسان فوراً الى جذور المشكلة»[١١].

ويلاحظ ان غسان قد عالج مشاهداته تلك، في قصة «كعك على الرصيف»، في مجموعته الاولى «موت سرير رقم ١١».

ومرة اخرى ادهشه، وكان مدرساً للرسم، ان طلابه الاطفال من سكان مخيمات اللاجئين، لا يستوعبون منظر التفاحة والموزة، لانهم لم يشاهدوا في حياتهم هذين النوعين من الفاكهة: «كانت العلاقة بين احاسيسهم وهذه الرسوم، علاقة متوترة لا علاقة جيدة. كانت تلك نقطة تحول حاسمة... ونتيجة لذلك، محوت الرسوم عن اللوح، وطلبت من الاطفال ان يرسموا المخيم. وبعد بضعة ايام، عندما جاء المفتش الى المدرسة، قال بانني حدت عن البرنامج الحكومي المقرر مما يبرهن على انني معلم فاشل. وقد حملني، اضطراري للدفاع عن نفسي، الى خضم القضية الفلسطينية مباشرة. ان تراكم خطوات صغيرة كهذه يدفع الناس الى اتخاذ قرارات من شأنها ان تترك طابعها على حياتهم باكملها...»[١٢]. «... ان فلسطين تمثل العالم برمته في قصصي. ففي وسع الناقد الادبي الآن ان يلاحظ بان قصصي لا تتناول الفرد الفلسطيني ومشاكله فحسب، بل تتناول حالة انسانية لإنسان يقاسي من المشاكل اياها...»[١٣]. ان هذا الاستطراد حول خصوصية غسان السياسية والادبية، كان مقصوداً، كي نبرر الرأي التالي، الذي نراه، لدراسة ادبه الروائي، وينسحب بالتالي، بشكل منطقي، على دراسة البطل في هذا الادب.

خصوصية غسان وعالمه الروائي

يقوم هذا الرأي، على ان عالم غسان الروائي، من الافضل دراسته كنتاج متصل كان مواكباً لحركة المجتمع الشعبي الفلسطيني، يسبقها مرة، ويعبر عن الطارىء فيها مرة اخرى. ففي مرحلة السكون والجمود التي اعقبت نكبة عام ١٩٤٨، كان دوره حافزاً ومهماً. اذ من خلال الموت الذي طبع تلك الفترة، كتب روايته الاولى «رجال في الشمس»، ١٩٦٣، يدين فيها حالات الخلاص الفردي غير الملتحمة بالجماهير، لأن مصيرها فشل